

مع الشعراء

نقد الشعر

يقلم فايز العمروسي

المدرس بمدرسة النيرة الابتدائية للبنين

يجرنا الكلام في نقد الشعر ، إلى لمحطة خاطفة في طبيعة الشعراء .
 فمنهم ذو الموهبة الخاصة ، وهو النكوب الذي لا يبرأ أبداً ؛ ومنهم المقلد ،
 الذي يعيش مع الأحياء في مستوى واحد ، وهو السعيد الذي لا يعرف الألم إلى
 نفسه سبيلاً ، والأول هو من يبرز لنا : « أدب الشخصية » أو أدب « الكيان
 الذاتي » ذاك لأن طبيعته موهوبة من الحس والحيوية والقوة الروحية ، مابه تمتزج
 بكل مظهر من مظاهر الحياة ، فتخرجه صورة صادقة من نفسه ، وأنموذجاً دقيقاً
 لشخصيته ، وفرق بين هذا وبين الناظم الذي يحس مظاهر الحياة إحساساً
 فطرياً فيصورها كيفما وقع عليها نظره السريع ، دون أن يكون بينها وبين نفسه
 اتصال ، وهذا الشاعر — مع التساهل في التسمية — هو الموجود في معظم الحياة
 الأدبية الحاضرة ، وهو هو الذي يسعد بالنعمة من الجزاء والتقدير !

إن صلة الشاعر بنفسه ، هي ميزان العظمة والنبوغ ، فكلما اشتدت الصلة
 بينهما ، طفت النفس عليه وحجبت بأجنحتها فلا يستطيع التخلص منها ، ولا
 يجد سبيلاً إلى الفرار من تحت هذا الضغط العنيف ، فهو أبدأ متلاش فيها ، ذائب
 في حوضها ، ومن هنا تظهر شخصيته في إنتاجه رغم أنه ، ويمتد ظلها في كل
 وادٍ يسلكه ، وكل جوي يحوم فيه ؛ فهو في الرناء والتهنئة والمدح والوصف والنزل
 وفي الفكر والتأمل ، وفي كل خاطرة توقظها في نفسه صور الحياة ونوازعها — هو
 في كل هذا ذو طابع لا يتغير ، وفي موسيقية لها إيقاعها الخاص به ، وبين

ظلال من الألوان التي شبت تحت عرشها نفسه الفطرية الأولى !

ولعل هذه الخصائص هي ما ميزت شعر « لامتريين » شاعر الحب والجمال بطابعه الخالد ، وأضفت على ليالي « ألفريد دموسيه » أنثى تأملية حزينة احتوت نفسه وقلبه ، وهي هي تلك الخصائص التي بها خلد « شيلي » الشاعر الإنجليزي ، في مقطوعات حياته الغرامية الصاخبة ، وهي هي نفسها ما أبقت على شعر « كينس ويرون » الشعراء الإنجليز رغم قلة إنتاجهما وقصر عمرهما !

فقوة الشخصية — مهما كان نوعها — هي التي تخلد فن صاحبها ، وبقدر ظهورها أو تلاشيا يكون تقديره والاعتزاز به ... والشاعر من هذا النوع ممتاز بأمرين : بصدقه فيما يحس ، وبقدرته على تصوير هذا الحس بريشة كنهه الذاتي ، لا بريشة الطلاء والزخارف والألوان ، وهو بتلك القوة منبع صادق بالفيض والإلهام قبل أن يكون للبواعث الخارجية أثر في الإثارة والاذكاء !

أما ذلكم الشاعر الذي ينظم فيجيد ، وينمق فيدع ، ويوقع فيُنغم الإيقاع من غير روح أو حرارة أو صدق ، يمدح كل عظيم بصفات واحدة لا تتغير ، ويرثي كل راحل بكاء واحد لا يختلف ، ويصف الليل بأنه ظلمة وهدوء ، أو قمر ونجوم لا غير ، وينظر إلى الصحراء فيحسها زمالا واتساعا فحسب ، ويرنو إلى البحر فيحسبه أمواجاً وشواطئ ، ويعنو إلى الروض فيخاله خضرة وأشجاراً مجردة من الأثر ، وعارية من التأمل والفكر الناضج ... أما ذلكم الشاعر فهو والناس سواء ، لم يخرج عن مألفهم ، ولم يتجاوز دائرة أفكارهم !! إذا نزل سبته ملامح الوجه ، ورشاقة الأعضاء ، ولطف التناسق ، وإذا تذكر سرد الحقائق مجردة كأحدوثه الأطفال وقصص المؤرخين ، وإذا حاول أن يفكر علق فكره بالسطحي من الأمور ، وعجز عن أن يمد هذا الفكر بالتأمل العميق ... هذا الشاعر لم يحمل إلينا رسالة الشعر الخالدة ، التي تسجل لصاحبها في تاريخ الفكر والانسانية لقب الانسان الممتاز

وحرام أن تبيح القوانين الشعرية لقب « الشاعر » لمن كانت هذه شاكلته ،
فالفكر والصدق والشعور والقلب ، مواهب غالية لا بد من توفرها فى الإنتاج
الأدبى لينال فى الحياة تقديرها المعنوى من الاجلال ، وحيث يخلو الإنتاج منها فما
أجدره بالفناء ! ولا تختلف هذه المواهب عما عناه الأستاذ « المقاد »
بـ « الشخصية » التى نفاها عن المرحوم « شوقى » فى جميع إنتاجه الشعرى
وعندى أن « شوقى » ليس هو وحده الذى فقد الشخصية ، فإن أغلب شعراء
عصر الانتقال إلى عهد النهضة الحديثة من هذا النوع ، غير أن « شوقى » وإن
فقد شخصيته لم يفقد فى شعره عبقرية « الفنان » المبدع ، فوق ما امتازت به
ميوله من أنه الشاعر الشعبى الخالد !

على أننى أيسج « الناظم » الذى يتمشى مع الصنعة والاجادة ، ولا يستطيع
مراجعتها بنفسه وطبعها بطابعه الخاص — أيسج له أن يحدق صنعته ويشبعها إجابة
وإتقاناً ، ولكن لا أستطيع أن أقول إنه « شاعر » بالمعنى الذى تحدده مهمة
الشعر السامية ، أيسج له هذا وأعذره كل العذر ، إذ لو كانت له نفسه قوية
لظهرت — وإن حجبها — ولو كان له روح لحقق فى كل خاطرة من خواطره
ومن من الشعراء الأقدمين — إلا قليلاً — خالف النمط الذى سار عليه
شوقى ؟ كلهم من هذا النوع ، لأنهم عاشوا فى أجواء اجتماعية مختلفة ، تطلبت
مرافقها أن تتلائم شخصياتهم ، وتنفى أرواحهم ، فلم يحفلوا بالشعر إلا كصناعة
كلامية ، أجودها ما جرت الكسب وقرب من الملوك والأمراء ، وما أعتقد
أن حياة « شوقى » كانت غير حياتهم فى شيء !

وبعد : فسيقول قائل : أين نقد الشعر من هذا الكلام ؟ وأجب أن يعرف
السائل أن نقد الشعر معناه فهمه ... وما احتوته هذه الكلمة إنما هو فهم للشعر
وتفهم لمختلف الطبائع التى تنتجها ، ومحاولة لوزن أقدار تلك الطبائع على ضوء
الشعر الذى يريده ، أو الذى يريده الفن الشعرى الكامل ! وإليك صورة من نقد
الشعر أو « فهمه »

يسمع هذا بيتاً من الشعر فيصيح على الفور « الله ! » ثم تسأله ماذا فهم من البيت ؟ فيجيبك لا أدري ؟ ... ويسمع ذاك بيتاً من الشعر فيطلب منك الإعادة فتعيد ! ثم يطلبها ثانياً فتعيد : ثم يصمت في إطراقة من البلادة ليجيبك بمسداها بتلك الكلمات « اللفظ ده إيه ؟ ودى مصدر أو اسم مصدر و ... و ... الخ » ومعنى هذا ، أن السامع الأول ذو ملكة فنية تيقظت إلى الناحية الموسيقية في البيت ، دون أن تترسم قواعد اللغة فيه ، فاهتز وطرب كمن تشجيه الألحان ، ويسبح في خيال الأنعام وهو لا يدري لأصولها معنى ، وأن الثانى ليست فيه تلك الملكة ، فهو مقفر من الحس الفنى ، وغير صالح لغذاء المعنى أو الروح ، وكلا الاحساسين ليس صالحاً وحده لتساع الشعر أو نقده ، لأن الأول موسيقى بحت ، والثانى نحوى بحت ! وكلاهما مخطئ ، فى التقدير ، عابث فى الحكم إذا حكم ، غير أن الأول قريب من الصلاحية ، لأنه موهوب بأكبر عناصر الشعور وهو الموسيقى ، أما الثانى . فما أجدره بفهم « المرائض والبلاغات ! »

القصيدة الشعرية كطاقة من الأزهار المنسقة ، فاذا نثرت أزهارها واحدة واحدة هتكت حرمتها ، وشوهت روعتها ، وأهنت جلالها ، فلا تبعث فى النفس ما كانت تبعثه فيها من الفيض والنشوة والشعور بالجمال

والبيت الواحد من القصيدة كالزهرة المذراء ، تنظر إليها العين لتستشعر جمالها ، وتستشف عذوبتها ، فى صمتها المعبى ، وحيائها العفيف ، ثم ينتقل الحس بها إلى الفكر ، لياخذ طريقه إلى التأمل والامعان ، فاذا ما عبثت بعذريتها ، وشرحت تلك الزهرة بأصابعك الأثيمة إلى جزئياتها ، ذلت كبرياؤها ، وأصبحت نظرية علمية ، لا معنى سحرى جميل !

إذن فالنظر الفنى إلى القصيدة ، يجب أن يكون نظراً كلياً ، لا جزئياً لأنها كتلة واحدة تعبر عن ممان نفسية ، مصدرها القلب ، وفيضها الشعور ، والقلب والشعور متحدان دائماً فى التعبير عن الماطفة ، نحو مؤثر واحد من المؤثرات ، فمن الخطأ أن نفرق بين الشعور الواحد فى قصيدة ما ... بأن نحللها بيتاً بيتاً ،

أو أن نهد كيائها بالنظر إلى ألفاظها التي أعدها رخيصة ، إذا قيست بالمعنى الرائع الذي تحمله القصيدة إلى الناس

ولست أقصد بهذا الكلام أن تنقض النظر نهائياً عن ذقة التراكيب وسلامة التعبير وصحة الألفاظ . كلا : ولكن أريد من الناقد أن يكون ذا موهبتين : موهبة الفن الشعري ، حتى يُحس جلاله وعذوبته ؛ وموهبة القوة اللغوية ، التي تستشعر النقص في المرحلة الأخيرة من النقد ، دون أن يفض هذا النقص — المقبول — من تقديره لفنية القصيدة ، أو يؤثر في إحساسه نحوها

ومثل ناقد الشعر ، كمثل اثنين يستمعان إلى أنغام موسيقية تمثل قطعة في معنى من المعاني ، أحدهما لا يستشعر من الموسيقى إلا رنين صوتها ، والثاني موهوب فنى يستشعر كلها أو نقصها . فلا شك أن الأول إذا تعرض للنقد كان جريئة كبرى على الفن ، وتهجماً شنيعاً على معنى لا يحسه ولا يتذوقه ، وليس في استمداده الفكرى ما يهيئ له أسباب التأمل فيه . ولا شك أن الثاني أهل للملاحظة وجدير بالتعليق على ما يسمع من الأنغام ، من حيث قوتها أو ضعفها ، أو رقتها أو تجافها ، فإذا لم يكن تعليقه من ناحية أصول الفن ، فلا أقل من أن يكون من ناحية الحس والوجدان ... وناقد الشعر واحد من هذين الاثنين وكفى !!

للموسيقى الدائع الصيت « بهوفن » قطعة موسيقية اسمها « أمواج الدانوب » قطعة صامتة تحس من خلالها رعشة المياه ، وخلجات الأمواج الصغيرة ، وقفزاتها في المدّ وانحسارها في الجزر ... أيحس معناها وحلاّلها سامع مقفر من الحسّ الفنى والشعور الإنسانى الممتاز ؟ طبعاً لا . وما تلك القطعة إلا قصيدة فلهي لها من يسمعها ، ليحسّها ... لينقدّها .. !

قابلي مرة — في الطريق العامة — واحد من كبار المثقفين خياني قائلاً :

قرأت قصيدتك « وداع عهد » التي تقول فيها :

ذكرت العهد فانسابت برغمي دمة حرّى

وأحبسها فتقلبى فأسكبها دماً مُرّاً

ولى اعتراض على ما قلت . قلت : تفضل بأبدائه . قال : كيف يكون الدم

مُرّاً ؟ ففهمت فوراً عقلية مولانا ... وأردت التخلص من اعتراضه الوجهية ...

بأسهل رد بديهي محسوس ! قلت : لقد ذقته بلساني . فتمجّب !! وقال : أذقت

الدم بلسانك ؟ قلت : وأسكنته جوفى ! فزاد تمجّبه ! فأكدت له ذلك فافتنع !

ثم قال : إذن هي حقيقة لا مجاز ؟ قلت : وأُمّ الحقيقة !

وهذا مثل من نقاد الشعر ، تطوف بذهنه المعاني الحسية دائماً فيتصور في :

« وأسكبها دماً مُرّاً » أنني سكبتها دماً أحمر قانياً وطعمه مرّاً كالخنظل !

ومثل آخر من نقده أو فهمه :

قرأ أديب هذين البيتين لإسماعيل صبرى :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضاً لوعة وعتاباً

كان صديقاً في خلال صديقه تسرب أثناء العتاب وغاباً

ففهم الأديب من البيت الثانى سوء نية الشاعر . وذلك من لفظ « خلال » .

ثم فهم من « تسرب وغاباً » أن أحدهما ابتلع الثانى في جوفه ، وهذا بعض ما قال :

« ثم كيف كان تسرب الصديق في خلال صديقه ؟ هل حمّله الآخر في بطنه

حتى تمر عليه تسعة أشهر فيلده ؟ وكيف تسرب بجملته من انحص قدميه إلى

ناصيته ؟ الحق أنه تسرب فاحش مبتذل ، ولو أنه تسرب قلبه إلى قلبه لكان

ظريفاً مستملحاً ، يريد الناقد بهذا ، الإشارة إلى بيت المرحوم « الرافى » :

وشدّ الهوى قلباً لقلب كأنما يريد الهوى إنقاذ قلب إلى قلب

هذا أديب مؤلف فهم البيت كما سقته الآن ، فكيف يفهم الشعر غير الأدباء .

إذا كان المشتغلون بالأدب في معالجة فهمه وتدوقه يفهمون معنى « تسرب وغاباً »

على أنهما يفيدان عملية الابتلاع بعد الأكل والمضغ ، أو يفيدان أن الحبيب مع

حببه حين اللقاء كالحوت مع فريسته حين الابتلاع ؟
 وكيف يفهم الأديب قول شاعر الحب والجمال « لامارتين » :
 وبنفسى فى ساعة الموت صمت يحتوينى كصمتة القبلات
 بين قلبين فى عناق طويل دائم الصمت بالغ الحفقات
 سيقول الأديب : كيف ينام الحبيبان فى القبلات ! وكيف يكون فى القلبين
 رعد وزلازل ؟

وأخيراً : قد يحسن التطويل فى هذا الموضوع ، ولعلنى راجع إليه فى العدد
 الآتى ، متناولاً فى ذلك أيضاً دراسة الأدب فى مصر ، وإذا عشت ، فإنى فاعل
 بذلك إن شاء الله ما

فابن العمروسى